

يَقِينُ الْخَلَاصِ

المحاضرة ٣: أَرْبَعُ فِئَاتٍ مِنَ النَّاسِ

أ.ر. سي. سرول

سَتَتَّبِعُ الْآنَ دِرَاسَتَنَا لِمَوْضُوعِ التَّيَقُّنِ مِنَ الْخَلَاصِ. فِي أَوَّلِ مُحَاضَرَتَيْنِ لَنَا رَأَيْنَا الْجِدَالَ الْقَائِمَ بَيْنَ مَجْمُوعَاتٍ لَاهُوتِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ بِشَأْنِ إِمْكَانِيَّةِ التَّمَتُّعِ بِبِقِيَمِ الْخَلَاصِ. وَفِي مُحَاضَرَتِنَا الثَّانِيَّةِ، تَكَلَّمْنَا عَنِ الدَّعْوَةِ الْكِتَابِيَّةِ إِلَى السَّعْيِ وَرَاءَ التَّيَقُّنِ مِنَ الْخَلَاصِ. إِذَا الْآنَ، أُرِيدُ التَّكَلَّمَ عَنْ بَعْضِ الْمَشَاكِلِ الَّتِي نُوَاجِهُهَا عِنْدَمَا نَسْعَى بِاجْتِهَادٍ إِلَى التَّيَقُّنِ مِنَ الْخَلَاصِ. عِنْدَمَا أَتَطَرَّقُ إِلَى هَذَا الْمَوْضُوعِ، فَأَنَا أَشِيرُ دَائِمًا إِلَى وُجُودِ أَرْبَعِ فِئَاتٍ مِنَ النَّاسِ فِي الْعَالَمِ. أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا يَخْتَلِفُ عَنِ التَّفْسِيرِ الْمُعْتَمَدِ فِي الْعَالَمِ، حَيْثُ نَقُولُ عَادَةً إِنَّهُ تَوْجَدُ فِئَتَانِ مِنَ النَّاسِ فِي الْعَالَمِ، وَهَاتَانِ الْفِئَتَانِ مِنَ النَّاسِ فِي الْعَالَمِ تَضْمَانِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَفْسِمُونَ الْعَالَمَ إِلَى فِئَتَيْنِ مِنَ النَّاسِ وَمَنْ لَا يَفْعَلُونَ؛ أَوْ كَمَا يَقُولُ جِيمْسُ كِينِيدِي، تَوْجَدُ ثَلَاثَ فِئَاتٍ مِنَ النَّاسِ فِي الْعَالَمِ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَعُدُّوا، وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَقْدِرُونَ. لَكِنَّا سَنَنْظُرُ الْآنَ إِلَى الْفِئَاتِ الْأَرْبَعِ مِنَ النَّاسِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ نُمَيِّزَهَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَسْأَلَةِ التَّيَقُّنِ مِنَ الْخَلَاصِ.

فَلْتَبَدَأْ بِالْفِئَةِ الْأُولَى مِنَ النَّاسِ: إِنَّهُمْ الْأَشْخَاصُ غَيْرُ الْمُخَلَّصِينَ وَالَّذِينَ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ. أَذْكَرُ أَيَّ كَرَرْتُ مَرَّةً بِالْإِنْجِيلِ لِرَجُلٍ فِي سِينْسِينَاتِي، وَطَرَحْتُ عَلَيْهِ الْأَسْئَلَةَ الْكِرَارِيَّةَ التَّشْخِصِيَّةَ الْكَبِيرَةَ، وَبَدَأْتُ بِالسُّؤَالِ الْأَوَّلِ: "هَلْ تَوَصَّلْتَ إِلَى مَرَحَلَةٍ فِي حَيَاتِكَ الرُّوحِيَّةِ تُدْرِكُ فِيهَا بِالتَّأَكِيدِ أَنَّكَ سَتَذْهَبُ إِلَى السَّمَاءِ حِينَ تَمُوتُ؟" فَلَمْ يَتَوَانَ هَذَا الرَّجُلُ. بَلْ نَظَرَ فِي عَيْنِي مُبَاشَرَةً وَقَالَ: "لَا، أَنَا وَاثِقٌ مِنْ أَيِّ لَنْ أَذْهَبَ"، قَالَ: "أَنَا وَاثِقٌ مِنْ أَيِّ سَأَذْهَبُ إِلَى الْجَحِيمِ". فَصَعِقْتُ بِجَوَابِهِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ سَبَقَ لِي أَنْ التَّقِيْتُ شَخْصًا وَاثِقًا تَمَامًا مِنْ مَصِيرِهِ وَمِنْ ذَهَابِهِ إِلَى الْجَحِيمِ. لَكِنَّ هَذَا الرَّجُلُ كَانَ وَاثِقًا مِنَ الْأَمْرِ، لَقَدْ كَانَ يَعِيشُ حَيَاتَهُ فِي الْإِثْمِ، وَهُوَ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَعِيشُ فِي الْإِثْمِ، وَكَانَ يَعْرِفُ عَوَاقِبَ حَيَاةِ الْإِثْمِ هَذِهِ، وَالَّتِي تُؤَكِّدُ مَا يَقُولُهُ لَنَا الرَّسُولُ بُولُسُ فِي الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ مِنْ رِسَالَةِ رُومِيَّةِ. فِي آخِرِ هَذَا الْأَصْحَاحِ، بَعْدَ أَنْ عَدَّدَ الْخَطَايَا وَالرَّذَائِلَ الَّتِي تُمَارِسُهَا الْبَشَرِيَّةُ السَّاقِطَةُ، تَوَصَّلَ إِلَى الْإِسْتِنْتِاجِ التَّالِيِ، وَهُوَ أَنَّنَا نَحْنُ الْبَشَرُ السَّاقِطِينَ لَا نَفْعَلُ هَذِهِ الْأُمُورَ فَحَسَبُ، بَلْ إِنَّنَا نَشْجَعُ الْآخِرِينَ عَلَى فِعْلِهَا عَالِمِينَ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَصْنَعُ هَذِهِ الْأُمُورَ يَسْتَحِقُّ الْمَوْتَ. وَمَا يَقُولُهُ بُولُسُ هُنَا هُوَ أَنَّهُ وَفَقَ إِعْلَانِ اللَّهِ الطَّبِيعِيِّ، لَا فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ فَحَسَبُ، لَيْسَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَسْمَعَ وَعَظًا مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِكَيْ يَعِيَ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا حِينَ يَكْتُبُ اللَّهُ شَرِيعَتَهُ عَلَى قُلُوبِ النَّاسِ وَيَزْرَعُ كَلِمَتَهُ فِي أَدْهَانِ النَّاسِ مِنْ خِلَالِ الضَّمِيرِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَعْلَمُونَ فِي قَرَارَةِ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ مُذْنِبُونَ بِسَبَبِ سُلُوكِهِمْ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا فِي شَرِكَةٍ مَعَ خَالِقِهِمْ.

يُوجَدُ الْكَثِيرُ مِنَ الْأَشْخَاصِ فِي الْعَالَمِ مِمَّنْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ فِي حَالَةٍ ضَلَالٍ أَكْثَرَ مِمَّا نَتَصَوَّرُ. فَظَاهِرِيًّا، يُنْكِرُ مُعْظَمُ النَّاسِ تَعَرُّضَهُمْ لِعَضَبِ اللَّهِ أَوْ حَتَّى أَنَّهُمْ يُنْكِرُونَ وُجُودَ اللَّهِ. لَكِنْ كَمَا يَقُولُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ، «الشَّرِيرُ يَهْرُبُ وَلَا طَارِدَ»، وَالشَّرِيرُ يَرْتَعِدُ أَمَامَ رَفْرَفَةِ وَرَقِ الشَّجَرِ، وَبِالتَّالِي، ضَمِينًا وَوَرَاءَ كَوَالِيَسِ الْبَشَرِيَّةِ السَّاقِطَةِ الطَّبِيعِيَّةِ هُمْ يُدْرِكُونَ أَنَّهُمْ فِي مَازِقِ أَمَامِ اللَّهِ. لِذَا لَدَيْنَا الظَّاهِرَةُ الَّتِي أَسْمَيْنَاهَا تَوْبَةَ الْمَازِقِ، حَيْثُ إِنَّ النَّاسَ فِي آخِرِ أَيَّامِ حَيَاتِهِمْ، إِنْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ سَيَمُوتُونَ، يَصْحُونَ فَجْأَةً، فَيَسْتَدْعُونَ الْكَاهِنَ أَوْ يَتَّصِلُونَ بِالْقَسِّ وَيَسْتَعِدُّونَ لِلْحُصُولِ عَلَى ضَمَانَةِ الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ. تَعْرِفُونَ قِصَّةَ دَبْلِيُو. سِي. فِيلْدز (W.C. Fields)، الَّذِي كَانَ عَلَى فِرَاشِ الْمَوْتِ وَفَعَلَ أَمْرًا فَاجَأَ كُلَّ مَنْ يَعْرِفُونَهُ. جَاءَ إِلَيْهِ أَحَدُ أَصْدِقَائِهِ وَوَجَدَهُ يَتَصَفَّحُ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ وَهُوَ عَلَى فِرَاشِ الْمَوْتِ، فَقَالَ لَهُ صَدِيقُهُ: "يَا دَبْلِيُو. سِي، مَا الَّذِي تَفْعَلُهُ؟" فَأَجَابَ: "أَبْحَثُ عَنْ مَهْرَبٍ". إِذَا، حَتَّى فِي حِسِّ الدُّعَابَةِ لَدَيْهِ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ فِي حَالَةٍ خَطِرَةٍ جَدًّا لِأَنَّهُ سَيُوجَاهُ خَالِفُهُ.

إِذَا، هَذِهِ هِيَ الْفِتْنَةُ الْأُولَى، إِنَّهَا فِتْنَةُ الْأَشْخَاصِ غَيْرِ الْمُخْلِصِينَ وَالَّذِينَ يُدْرِكُونَ ذَلِكَ. هُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا فِي حَالَةِ النِّعْمَةِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا فِي شَرِكَةٍ مَعَ اللَّهِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ بَعِيدُونَ عَنِ اللَّهِ، وَبِالتَّالِي، لَدَيْهِمْ يَقِينٌ سَلْبِيٌّ. أَمَّا الْفِتْنَةُ الثَّانِيَّةُ فَتَضُمُّ الْأَشْخَاصَ الْمُخْلِصِينَ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُخْلِصُونَ، أَيْ أَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ مُتَيَقِّنٌ تَمَامًا مِنْ أَنَّهُ فِي حَالَةِ النِّعْمَةِ وَمِنْ أَنَّهُ مُخْلِصٌ. سَنَتَكَلَّمُ أَكْثَرَ فِي سِيَاقِ هَذِهِ السَّلْسِلَةِ عَنْ كَيْفِيَّةِ تُمْكِينِنَا مِنْ اكْتِسَابِ، مِنْ خِلَالِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ وَبِمُوجِبِ عِلَاقَتِنَا مَعَ اللَّهِ، يَقِينًا تَمَامًا مِنْ أَنَّنَا فِي حَالَةِ النِّعْمَةِ. إِذَا، ثَمَّةَ أَشْخَاصٍ غَيْرِ مُخْلِصِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ غَيْرِ مُخْلِصِينَ، وَثَمَّةَ أَشْخَاصٍ مُخْلِصُونَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُخْلِصُونَ. إِذَا، هَاتَانِ الْفِتْنَتَانِ مُتَنَاقِضَتَانِ تَمَامًا، تَمْلِكُ الْإِثْنَتَانِ يَقِينًا - الْيَقِينُ الْأَوَّلُ يُبَشِّرُ بِآخِرَةٍ صَالِحَةٍ، وَالْيَقِينُ الْآخِرُ يُبَشِّرُ بِآخِرَةٍ سَيِّئَةٍ.

الْفِتْنَةُ الثَّالِثَةُ تَضُمُّ الْأَشْخَاصَ الْمُخْلِصِينَ، لَكِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ ذَلِكَ. إِذَا، مِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ تَكُونَ فِي حَالَةِ النِّعْمَةِ وَأَلَّا تَكُونَ مُتَيَقِّنًا تَمَامًا مِنْ أَنَّكَ فِي حَالَةِ النِّعْمَةِ. الْبَعْضُ يَعْتَرِضُ عَلَى ذَلِكَ. فِي الْوَاقِعِ، لَا يَتِمُّ الْإِعْتِرَاضُ فَقَطْ عَلَى الْفِتْنَةِ الثَّانِيَّةِ وَعَلَى الْقَوْلِ إِنَّهُ يُمَكِّنُكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ نِلْتَ الْخَلَاصَ، لَكِنْ يَقُولُ الْبَعْضُ إِنَّهُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ تَكُونَ فِي حَالَةِ النِّعْمَةِ مِنْ دُونَ أَنْ تُدْرِكَ ذَلِكَ لِأَنَّكَ إِنْ كُنْتَ تَتَمَتَّعُ بِالْإِيمَانِ الَّذِي يُخَلِّصُ فَإِنَّ مَضْمُونََ هَذَا الْإِيمَانِ هُوَ الثِّقَّةُ بِمُخْلِصٍ تُؤْمِنُ بِأَنَّهُ سَيُخَلِّصُكَ. إِذَا، إِنْ كَانَ لَدَيْكَ إِيمَانٌ لَكِنَّهُ لَيْسَ نَوْعَ الْإِيمَانِ الَّذِي يُؤَكِّدُ لَكَ أَنَّ اللَّهَ خَلَّصَكَ، فَعِنْدَيْدِكَ نَحْنُ نَتَسَاءَلُ إِنْ كَانَ لَدَيْكَ إِيمَانٌ حَقًّا.

أَوْ يُمَكِّنُنَا النَّظْرَ إِلَى الْأَمْرِ بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ. يَقُولُ بَعْضُ الْأَشْخَاصِ: "أَنَا أَعْتَقِدُ أَنِّي مُؤْمِنٌ لَكِنِّي لَسْتُ وَائْتِقًا مِنْ ذَلِكَ". نَحْنُ نَلْتَقِي دَائِمًا بِأَشْخَاصٍ مُمَاتِلِينَ. يَعُودُ جُزْءٌ مِنَ الْمُسْكِكَةِ إِلَى النَّظْرَةِ الشَّعْبِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ لِلدِّيَانَةِ. فَنَحْنُ نَسْمَعُ بِبَيْلِ جِرَاهَامِ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، الَّذِي يُطْلَعُكَ عَلَى الْيَوْمِ وَالسَّاعَةِ الَّتِي أَصْبَحَ فِيهَا مُؤْمِنًا. هُوَ يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ اهْتَدَى إِلَى

المسيح بعد أن كان يلعب البايستول، ثم ذهب إلى اجتماع كيرازي بعد المباراة وكان المبشر مورديكاي هام (Mordecai Ham) يعظ. فتقدم بيبي جراهام إلى الأمام واهتدى إلى المسيح فجأة، فتغيرت حياته رأساً على عقب. أنا أيضاً اخترت الأمر نفسه في حياتي. أنا أعرف تحديداً الوقت الذي التقيت فيه بالمسيح، يمكنني إطلاعكم على التاريخ والساعة، ويمكنني أن أخبركم أين كنت تحديداً وكيف حدث الأمر. ثم إنه ثمة أشخاص لا يستطيعون إخبارك بالسنة أو في غضون خمس سنوات عندما أصبحوا مؤمنين. فروث جراهام، زوجة بيبي مثلاً، لا تعرف متى أصبحت مؤمنة.

لدينا مشكلة في الكنيسة، وهي ميولنا إلى تعميم اختياراتنا الشخصية ومحاولة جعلها معياراً للجميع، بحيث إن الأشخاص الذين اهتدوا إلى المسيح فجأة على طريق دمشق، والذين يستطيعون إطلاعك على اليوم والساعة، يميلون أحياناً إلى الشك في الأشخاص الذين لم يملوا في هذا الاختبار، ويقولون إنك إن عجزت عن تحديد اليوم والساعة فربما أنت لست مؤمناً. وفي الوقت نفسه، ثمة أشخاص ممن لا يفدرون أن يحددوا اليوم والساعة، ويميلون إلى الشك في الأشخاص الذين يقولون إنهم يعرفون اليوم والساعة. والفكرة الأساسية هي أنه لا شيء في الكتاب المقدس يقول إنه علينا أن نعرف الوقت المحدد الذي آمننا فيه.

هنا يزداد الأمر تعقيداً، ويصبح من الصعب حله. لا يمكن لأحد أن يكون نصف متجدد أو شبه متجدد، فإما أن تكون مولوداً من روح الله أو لا تكون. والتجديد، الذي هو عمل الله الذي نتقبل من خلاله من مملكة الظلمة إلى ملكوت النور، هو اهتداء حقيقي إلى الله. والتجديد يحدث فوراً من خلال قوة الله ومن خلال عمل الروح القدس. إنه يحدث على الفور، وإما أن تكون متجدداً أو لا تكون. أكرر، التجديد لا يحدث بشكل تدريجي، إنه عمل فوري. إن كان هذا هو الحال، فإن الأمر يثير شكوكاً بشأن الأشخاص الذين لا يستطيعون إطلاعك على اليوم والساعة. لا لا، يجب أن نميز بين واقعية التغيير واختبار التغيير، ويجب أن ندرك أنه لا يعي الجميع على الفور اللحظة التي قام خلالها روح الله بعمله الفائق للطبيعة داخل نفوسهم. لذا، فمن الخطر جداً أن نضع معايير للشك في الأشخاص الذين لا يتوافق اختبارهم مع اختبارنا.

في الواقع، عندما أتكلم عن اختبار تعييري، يمكنني أن أطلعكم بكل تأكيد على اليوم والساعة اللذين اخترت فيهما الخلاص، لكن قد لا يتطابق هذا الاختبار مع عمل الله في نفسي. ربما جددني الله الروح القدس قبل أسبوع من ذلك، قبل شهر من ذلك، أو قبل خمس سنوات قبل أن أختبر حقيقة ما حدث في داخلي. إذا، حتى تأكدي من الوقت الذي اهتديت فيه إلى الله ينطبق على اختبار تعييري فحسب وليس على واقعية الأمر، لأنه يمكننا أن نخدع أنفسنا فيما يتعلق باختبار تعييرنا، ويمكننا لاختبارنا أن يكون واحداً من أكثر الأمور تضليلاً

التي يُمكنُ أَنْ تُواجهَها في حياتنا المسيحية. أحدُ أكثرِ الأمورِ خطورةً التي يُمكنُ أَنْ تُفعلَها كمؤمنٍ هو أَنْ تُحدِّدَ لأهوتك بناءً على اختيارك، لأنَّ اختيارك واختباري ليسا معياراً في الحياة المسيحية. يجبُ أَنْ تُحدِّدَ لأهوتنا بناءً على كلمة الله وليس على ما نشعرُ به. ليسَ هذا فَحَسْبُ، بل من المُمكنِ لنا أَنْ نُسيءَ فهُمَ وتفسيرِ معنى الاختباراتِ التي نمرُّ بها وأهميتها. لذا نحنُ مدعوونَ إلى امتحانِ اختباراتنا على ضوءِ الكتابِ المقدسِ وعلى ضوءِ كلمةِ الله، بحيثُ إنَّنا نُحدِّدُ إيماننا بناءً على ما جاء في كلمةِ الله وليس على ما نشعرُ به أو ما اخترناهُ. إذا، هذا يُخدِّرُ يجبُ أَنْ نتداركهُ بينما نتكلَّمُ عن مسألةِ التيقنِ من الخلاصِ، لأنَّنا إنَّنا بئينا يقيِّننا على اختبارٍ وليس على كلمةِ الله، فنحنُ نستدعي شتى أنواعِ الشكوكِ والمشاكلِ لتشنَّ هجوماً علينا في مسيرةِ إيماننا.

أيضاً يُختبرُ بعضُ الناسِ شعوراً غامضاً بالدفعِ في أرواحهم ونفوسهم، فيقولون: "شعرتُ بشيءٍ ما في تلكِ الليلةِ فقبلتُ المسيح". ربَّما كنتُ تعاني من عسرِ هضمٍ، لسنا ندرى. عندما نتكلَّمُ عن كوننا مُخلصينَ ونحنُ لا ندرُكُ ذلكَ، يجبُ أَنْ نأخذَ بعينِ الاعتبارِ الطُّرقَ التي يُمكنُ لنا أَنْ نُخدعَ أنفسنا بها، والطُّرقَ التي يُمكنُ لها أَنْ تُضللنا لكي نبحثَ عن المعرفةِ الحقيقيةِ ليقيننا، وليس عن اختبارٍ غامضٍ.

لكنَّ مُجدِّداً، تضمُّ هذه المجموعةُ الثالثةُ أشخاصاً مُخلصينَ لكنهم لا يعلمونَ أنهم مُخلصونَ. هم لم يتعلموا كيفيةَ التَّأصلِ في كلمةِ الله والتيقنِ من خلاصهم. يتضمَّنُ الأمرُ افتراضاً مقدَّماً. عندما كتَبَ بطرسُ للمؤمنينَ في أوَّلِ رسالتينِ له، حيثُ قال: "اجتهدوا... أن تجعلوا دعوَتكم واختياركم ثابتين"، إنَّه لمنَ الحماقةِ إعطاءِ هذه التصيحةِ للناسِ إن كانوا متأكدينَ جميعاً من الأمرِ. إذا، هذا يفترضُ مقدَّماً أنَّه يُمكنُ للناسِ أَنْ يكونوا مُخلصينَ من دونِ أَنْ يكونوا متأكدينَ من ذلكِ.

هذا جيِّدٌ حتَّى الآنَ. من السهلِ أَنْ نتابعَ ذلكَ. ثمَّةُ أشخاصٍ غيرِ مُخلصينَ وهم يُدرِكونَ ذلكَ، وثمَّةُ أشخاصٍ مُخلصونَ وهم يُدرِكونَ ذلكَ، أيضاً، ثمَّةُ أشخاصٍ مُخلصونَ لكنَّهم لم يحدثُ لهمُ بعدُ، لسببٍ أو لآخر، أَنْ تيقنوا من أنهم في حالةِ النعمةِ أمامَ الله. هذه كلها فئاتٌ من السهلِ جدًّا علينا أَنْ نفهمها. الفئةُ الرابعةُ هي التي تُفسدُ مسألةَ يقينِ الخلاصِ؛ إنَّها فئةُ الأشخاصِ غيرِ المُخلصينَ الذينَ يظنونَ أنهم مُخلصونَ. تضمُّ الفئةُ الرابعةُ أشخاصاً ليسوا في حالةِ النعمةِ، لكنهم يظنونَ أنهم في حالةِ النعمةِ. إنَّهم غيرُ مُخلصينَ لكنهم متأكدونَ من أنهم مُخلصونَ. سنكرِّسُ بعضَ الوقتِ للكلامِ عن هذه الفئةِ بالذاتِ ونرى لماذا يُمكنُ أَنْ يكونَ للناسِ يقينٌ مُزيَّفٌ، لأنَّه من المهمِّ لنا أَنْ نفهمَ المُزيَّفَ إن أردنا أَنْ نُميِّزَ الحقيقيَّ. أظنُّ أنَّ أمانةَ الصناديقِ في المصارفِ يُخضعونَ دائماً لهذا التدريبِ ليقدروا أَنْ يعرفوا الصفاتِ الأساسيةِ للمالِ المزوَّرِ لكي يقدروا أَنْ يميزوه عندما يرونه. وكلَّما درَّستَ عن التزويرِ، أصبحَ بإمكانكِ أَنْ تُميِّزَ علاماتِ الشيءِ الأصليِّ.

في هذا الإطار، استفادت الكنيسة عبر التاريخ من العقائد المزيّفة ومن الهرطقات، ليس لأن الهرطقات جيّدة، أو لأن العقائد المزيّفة جيّدة، لكنّ ما حدث في تاريخ الكنيسة هو أنّه كلّما ظهرت هرطقة خطيرة واضطرت الكنيسة لمعالجتها، فإنّ هذا الأمر كان يُرغم الكنيسة على دراسة الحقّ بمزيد من التمعّن. ربّما لما كان لدينا كتاب مقدّس نقرأه اليوم لولا المهترق مارتينيون. فمارسيون كان أوّل من أصدر نسخة من العهد الجديد، لكنّها كانت نسخة مشوّهة للعهد الجديد. فهو كان يَكُنُّ حقداً كبيراً تجاه إله العهد القديم، وبالتالي، كلُّ إشارة إلى يهوه العهد القديم في نصوص العهد الجديد قام مارتينيون بحذفها. لذا فهو تخلّص من جزء كبير من مضمون الإنجيل ومن العبيد من الرسائل. إذا، هو قدّم كتاباً مقدّساً مزيّفاً، ما اضطرت الكنيسة إلى القول: "مهلاً، فلندوّن الشروط الأساسية لما يجب إدراجه في قانونية الكتاب المقدّس وما لا يجب إدراجه". ولولا هذا المهترق الكبير لا أظنُّ أنّ الكنيسة كانت لتحاول التطرّق إلى هذا الموضوع. ثمّ حدث الأمر نفسه في القرن الرابع مع المهترق أريوس الذي أنكر ألوهية المسيح. لا يعني ذلك أنّ الكنيسة لم تؤمن بألوهية المسيح حتى القرن الرابع، حتّى انعقاد مجمع نيقية وكتابة قانون الإيمان النيقاويّ، هذا غير صحيح. فالكنيسة اعترفت بألوهية المسيح منذ البداية، لكنّ الغموض كان يشوب الأمر، ولم يصدر التعريف الواضح لألوهية المسيح وللتألوث إلا عندما فرضت الهرطقة ذلك. إذاً أكرّر، فهم المزيّف يساعداً على فهم الأصليّ بشكلٍ أفضل.

منذ بضع سنوات، قمنا بجولة على المواقع التي نشأ فيها الإصلاح، وسرنا على خطى مارتين لوثر. وزرنا أماكن مختلفة فيما كان يُعرف بالألمانيا الشرقية، حيث قام مارتين لوثر بخدمته. زرنا إرفورت (Erfurt)، ويتنبرج (Wittenberg)، وورمز (Worms)، وأماكن مماثلة، وورنبرج (Nuremberg)، وكانت ثرافنا امرأة مضحكة. كانت تتحلّى بروح الفكاهة. وذات يوم، وبعد أن انتهينا من زيارة أحد المواقع بالباص كان لدينا وقت فراغ لتناول الغداء في المكان الذي نريد، فذهب أفراد المجموعة التي تقوم بالرحلة في اتجاهات مختلفة في المدينة، وقيل لنا في أيّ وقت يجدر بنا العودة وأين يجدر بنا أن نلتقي لتتجمع ونتابع الرحلة. فخرجنا وتناولنا طعام الغداء. جلنا في أرجاء المدينة وتناولنا طعام الغداء، ثم خرجنا من المطعم وتساءلنا: "من أيّ طريق أتينا؟ كيف سنعود إلى الباص؟" فقالت تلك السيّدة: "أنا أعلم". فوقفنا في المقدمة وبدأت تسيّر في المدينة ونحن نتبعها، ورحنا نجول في أرجاء المدينة. ولما بدأ القلق ينتابني سألتها: "عذراً يا ماري، هل أنت متأكّدة من أننا نسير في الطريق الصحيح؟" فأجابت: "نعم بالطبع"، فاطمأنّ بالي. ثمّ قامت بوضع خطوات إلى الأمام والتفتت صوبنا قائلة: "أنا دائماً متأكّدة، لكنني قلّما أكون محقّة". ربّما هذا ما نفصده عندما نتكلّم عن هؤلاء الأشخاص الذين يقولون بكلّ ثقة إنّهم سيذهبون إلى السماء، ويقولون إنّهم مؤمنون، وإنّهم واثقون من خلاصهم، وإنّهم ليسوا قلقين بشأن خلاصهم. لديهم يقين، لكنّه يقين مزيّف.

إِذَا، هَذَا مَا يُؤَلِّدُ التَّوَتُّرَ وَالْقَلَقَ اللَّذَيْنِ مُحَاوِلٌ مُعَالَجَتُهُمَا فِي هَذِهِ السِّلْسِلَةِ، لَا سِيَّمَا عِنْدَمَا نُقَارِنُ الْمَجْمُوعَةَ الْغَائِيَةَ بِالْمَجْمُوعَةَ الرَّابِعَةَ. هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ تَتَّصِفُ بِالشَّخَاصِ الْمُخْلِصِينَ وَالْمُتَيَقِّنِينَ مِنْ خَلَاصِهِمْ، وَهَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ تَتَّصِفُ بِالشَّخَاصِ غَيْرِ الْمُخْلِصِينَ لِكَيْتَهُمْ مُتَيَقِّنُونَ مِنْ خَلَاصِهِمْ. إِذَا، السُّؤَالُ الَّذِي طَرَحْنَاهُ فِي الْمَحَاضِرَةِ الْأُولَى يَطْرَحُ نَفْسَهُ مِنْ جَدِيدٍ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ إِنْ كَانَ لَدَيَّ يَقِينُ الْخَلَاصِ، وَكَانَ لَدَى هَذِهِ الْمَجْمُوعَةَ يَقِينُ الْخَلَاصِ، وَلَدَى هَذِهِ الْمَجْمُوعَةَ يَقِينُ الْخَلَاصِ، فَكَيْفَ يُمَكِّنِي أَنْ أَتَأَكَّدَ مِنْ يَقِينِي؟ لِنَفْرِضْ أَنَّكَ كُنْتَ تَتَنَاقَشُ مَعَ أَحَدِهِمْ وَطَرَحْتَ عَلَيْهِ سُؤَالًا، فَأَجَابَ مُؤَكَّدًا بِإِصْرَارٍ، فَتَسْأَلُهُ: "هَلْ أَنْتَ مُتَأَكَّدٌ؟" فَيَقُولُ: "نَعَمْ، أَنَا مُتَأَكَّدٌ"، فَتَطْرَحُ عَلَيْهِ السُّؤَالَ التَّالِيَّ: "هَلْ أَنْتَ وَاثِقٌ مِنْ أَنَّكَ مُتَأَكَّدٌ؟" لِأَنَّنا عِنْدَمَا نَتَكَلَّمُ عَنِ الثِّقَةِ أَوْ اليَقِينِ فَنَحْنُ لَا نَتَكَلَّمُ بِبَسَاطَةٍ عَنِ الْفِئَاتِ الْفَلْسَفِيَّةِ لِلثِّقَةِ، لَكِنَّا بِذَلِكَ نَصِفُ نَوْعًا مَا حَالَتْنَا الْعَاطِفِيَّةَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَسَائِلَ أَوْ تَأَكِيدَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ. وَالْمَيْلُ السَّائِدُ لَدَى الْبَشَرِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَسْأَلَةِ التَّأَكِيدِ عَلَى الثِّقَةِ هُوَ أَنَّهُ تُوجَدُ سِلْسِلَةٌ مُتَّصِلَةٌ تَعْمَلُ الثِّقَةَ مِنْ خِلَالِهَا. فَمَثَلًا، قَدْ يَقُولُ لَكَ أَحَدُهُمْ: "هَلْ تُؤْمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ مُوجُودٌ؟" تُوجَدُ طُرُقٌ عَدِيدَةٌ لِلْإِجَابَةِ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ: يُمَكِّنُكَ الْقَوْلُ: "لَا، لَا أُوْمِنُ"، أَوْ يُمَكِّنُكَ الْقَوْلُ: "لَا أَظُنُّ ذَلِكَ"، أَوْ يُمَكِّنُكَ الْقَوْلُ: "لَسْتُ أَدْرِي. أَرْجُو ذَلِكَ"، أَوْ يُمَكِّنُكَ الْقَوْلُ: "رُبَّمَا، أَوْ يُمَكِّنُكَ الْقَوْلُ: "نَعَمْ أَنَا أُوْمِنُ بِاللَّهِ"، أَوْ يُمَكِّنُكَ الْقَوْلُ: "طَبَعًا، أَنَا أُوْمِنُ بِاللَّهِ". كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأَجْوِبَةِ تَصِفُ دَرَجَةَ ثِقَةٍ مُخْتَلِفَةً تُرَافِقُ الْإِقْتِرَاحَ أَوْ التَّأَكِيدَ.

إِذَا، أَنَا لَا أَتَكَلَّمُ هُنَا عَنِ التَّأَكِيدِ الْحِسَابِيِّ، أَيُّ أَنَّ اثْنَيْنِ زَائِدَ اثْنَيْنِ يُسَاوِي أَرْبَعَةً، فَأَنَا أَتَكَلَّمُ عَنِ اليَقِينِ الَّذِي أَشْعُرُ بِهِ فِي دَاخِلِي، وَهُوَ يَقِينٌ يَتَأَرَّحُ بَيْنَ يَوْمٍ وَآخَرَ. فَأَحْيَانًا يَقُولُ لِي أَحَدُهُمْ: "أَرُ سَي، هَلْ أَنْتَ مُتَأَكَّدٌ مِنْ أَنَّكَ مُحَلِّصٌ؟" فَأُجِيبُ: "حَتْمًا". وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ، إِنْ كُنْتُ مُثَقَّلًا بِالشُّعُورِ بِالذَّنْبِ أُجِيبُ: "أَتَعَلَّمُ، أَظُنُّ ذَلِكَ". لَكِنْ تُوجَدُ تَقَلُّبَاتٌ فِي الْحَيَاةِ الْمَسِيحِيَّةِ. إِذَا، مَا يَجِبُ أَنْ نَفْهَمَهُ هُوَ أَنَّهُ يُوجَدُ أُسَاسٌ لِقُوَّةِ يَقِينِنَا يَجْعَلُنَا نَقُولُ: "لِأَنَّني عَالِمٌ بِمَنْ أَمَنْتُ، وَمَوْقِنٌ (بَلْ مَوْقِنٌ تَمَامًا) أَنَّهُ قَادِرٌ أَنْ يَحْفَظَ وَدِيْعَتِي إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ". إِذَا، تَكُنُّنُ الْمُسْكِةَ الْكَبِيرَةَ فِي التَّمْيِيزِ بَيْنَ اليَقِينِ الزَّائِفِ وَالْيَقِينِ الْحَقِيقِيِّ، وَهَذَا مَا سَتَتَكَلَّمُ عَنْهُ فِي الْمَحَاضِرَةِ الْمُقْبِلَةِ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسِّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيرِ، وَكَانَ أَحَدَ رِعَاةِ كَنِيسَةِ الْقُدَيْسِ أُنْدْرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسٍ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلْإِصْلَاحِ (Reformation Bible College). وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كَلْمًا لَاهُوتِيُونًا" وَ"أَدَهْسِنِي الْأَلَمُ".